القسم الثالث

اصلاح القرية

obeikandl.com

فى جنة الريف !

١ - بين الحقيقة والخيال :

أما أن قرية بهتيم النموذجية كانت تلوح لى فى أحلامى فاتنة رائعة الجمال فهذا ما لا شك فيه ، وأما أن خيالى استطاع أن يصور لى حقيقة تلك الفتنة ومقدار ذلك الجمال ، ففى هذا الشك وفيه الارتياب !

لقد اعتدنا أن نقرن الخيال بالإسراف والمبالغة ، وتعودنا منه أن يجمح فيرينا صوراً أروع من الحقيقة والواقع ولكن هذا الخيال قد يعجز أحياناً عن السمو إلى روعة الحقيقة ، ولا يقوى بجناحيه على التسامى بنا إلى جمال الواقع .

عزبة بهتيم ليست مدينة صغيرة بديعة وسط المزارع كما توهمت ! وكم كنت فى هذا التوهم ساذجة حمقاء ، لأنها لو كانت نموذجاً مصغراً للمدينة ، لكانت أشبه بالغراب الذى فتن بالطاووس ، فغطى جسمه بالريش الزاهى البديع واندس بين أسراب الطاووس ، فأهاجها حمق ذلك الدخيل

نشرت فى الأهرام بتاريخ ٢٩ من أغسطس سنة ١٩٣٥

منازل موظفى قرية برهتيم فى أحضان الحقول والأشجار

المفتون ، وأرغمته على الابتعاد عن حظيرتها ، فلما حاول الرجوع إلى حاله الأولى ، كان قد نسى مشيته وعوائده ، وكل ما ناله هو التعلق بين السماء والأرض ! لا يقوى على الصعود إلى سماء الطاووس فيهدأ غروره ، ولا يذكر طريق النزول إلى أرضه فيستريح !

وعزبة بهتيم . . . أين يكون سر الجمال فيها لو أنها كانت صورة للمدينة مصغرة ؛ أكانت تسمو إلى المدن الكبيرة فتذكر بينها ؟ أكانت تعد شيئاً مذكورا بجانب أبسط المدن وأصغر المراكز ؟ لا والله ، وتكون بعد هذا فقدت سحر الريف وسذاجة القرى وفتنة البساطة !

* * *

٢ ـ كيف وضع المشروع ؟

حين عمدت الجمعية الزراعية الملكية إلى إنشاء المثل الأعلى للقرى ، لم تفكر فى المدن كما فكرت أنا ، ولم تلق بالا إلى نظام المعيشة والمبانى ، وإنما عمدت إلى الريف ، تستلهم من عيوب القرى وانحطاط مستوى المعيشة فيها ، وحياً لتصميم العزبة النموذجية !

لقد نشأ مدير الجمعية فى صميم الريف وشاهد عن كثب وهو طفل ، أى نوع من البؤس يهيم فيه الفلاح ، فلم يملك

له إلا التألم والرثاء . ولكن هذا التألم كان نواة المشروع ، التى نمت مع نمو الطفل ! فلما شب غلبت عليه نزعته العملية الصميمة فرأى أن نظام تأجير الأطيان غير عادل ! ذلك لأن تأثير الظروف الجوية والمائية على كمية المحصول ، وتأثير تقلب الأسعار وكثرة المضاربات فى سعر المحصول يجعلان أحد الطرفين ـ المالك والمستأجر ـ ظالماً ، والطرف الثانى مظلوماً ! وأرقه التفكير أياماً وليالى حتى اهتدى وهو فى سن العشرين ، إلى نظام الاشتراك ، يزرع الفلاح الأرض ويقتسم هو والمالك ما ينتج منها !

ثم مرت الأيام ، وأتاح له عمله كمدير للجمعية الزراعية الملكية ، أن يعيد التغلغل فى الريف ، وأن تعاوده ذكرى الشقاء الأليم الذى شاهده بعينيه يستبد بالفلاح المجاهد ! وتحركت بذرة المشروع فى رأسه تطلب الحياة . . . فحمل أوراقه وقاد قافلة رجال الجمعية إلى القرى ! وهناك . . . فى الغرف الضيقة المظلمة التى يملؤها دخان الفرن ورائحة روث البهائم ، وضع تصميم غرف مزرعة بهتيم ! وبجانب حظيرة المواشى التى تختلط بغرف الدار وتملأ المكان رائحة نتنة قذرة ، وضع تصميم حظائر بهتيم الصحية

النظيفة . وفى كتاب القرية حيث يحتشد الصغار أمام «سيدنا» وتحت رحمة عصاه الغليظة القاسية . وضع تصميم مدرسة بهتيم الصحية المشمسة الواسعة ، وعلى حافة الترعة حيث تكثر القرويات يملأن الجرار ويغسلن الثياب البالية والأوانى المتواضعة الرخيصة ، وحيث تعوم جراثيم البلهارسيا والانكلستوما ، منتظرة أجسامهن الدافئة لتلتصق بها وتفترسها ، وضع مشروع مياه بهتيم ، التى ترفع بالآلات الرافعة من بئر ارتوازية إلى خزانين مرتفعين ، يغذيان مرافق العزبة بالماء النقى الطهور . وهكذا تم المشروع ، فى صميم القرى ووسط غمرات شقاء الفلاحين ، وليس فى المدن كما توهمت وكما يتوهم غيرى كثيرون !

* * *

٣ ـ فى الطريق إلى جنة الريف :

محطة شبرا ، مفترق الطريقين ، المدينة والمزارع !

تطلعت من نافذة السيارة إلى القاهرة ورائى تتضاءل وتتلاشى بضجيجها ، وتطلعت أمامى إلى الفضاء المتسع الرحب الذى لا يدرك نهايته الطرف ، وإلى الحقول الحية تترامى منبسطة حتى نهاية الأفق نابضة بالقوة والحياة والجمال ثم . . . تطلعت إلى السماء وفى عينى أذل أنواع الضراعة

والابتهال : رب إنى بائسة تعسة . وأعلم أن من المستحيل نسيان الآلام العاصفة التى تستبد بى ، ولكن يا رب ! هبنى النسيان !

وانسابت السيارة بنا وسط المزارع الرائعة . وكلما بعدت عن المدينة وتلاشى الصوت ، خف ضغط الألم الذى يجثم على صدرى ، ثم ما كادت السيارة تجتاز بنا مر شبرا (المزلقان) حتى تحررت من أفكارى - لا أدرى كيف ؟ - وأحسست كأنما أنا بعيدة عن العالم بشروره ومتاعبه . . . كم وددت لو أغادر السيارة ، وأغمر وجهى الملتهب . برطوبة سيقان القطن الفارعة الخضراء ، ثم أصلى ركعتين لله العلى العظيم !

ولمحنا عن بعد لافتة كبيرة عليها « مزارع الجمعية الزراعية الملكية » فعلمنا أننا مشرفون على معقل الجهاد والوطنية العاملة ، ثم انحرفت بنا السيارات يميناً وكأنما هى تنحرف بنا إلى حياة أخرى غير الحياة المقيدة التى نعرفها ! وبدأت أفواج القرويات تطالعنا وتهتف بى أن ألتفت محيية ! فانصرفت بوجهى وقلبى إليهن لأشهد وجوهاً مشرقة بسامة تفيض سحراً وصحة ووداعة ، ولأذكر الوجوه الشاحبه الذليلة التى تشوه جمال الريف المصرى . ووجوه

النساء الكاذبة المزيفة المصنوعة التى تطالعنا فى المدن ! ولم أملك أن صحت من أعماقى : ما أجملكن !

أين نحن ؟

فى العزبة القديمة ! آه . . . كأنما خشيت الجمعية على زائريها قسوة المفاجأة ! أو كأنما أحبت أن تدع لنا فرصة المقارنة . . .

وأحاط بى الأطفال يسألوننى فى سذاجة محببة إلى النفس عن اسمى ، وكأنهم ينكرون على سعادة المدير عدم تقديمى إليهم ! ولما أجبت مطلبهم عادوا منتصرين ، وسمعت زينب الطفلة الصغيرة الوديعة تهمس فى أذن أخيها الصبى : أنت مش عارفها ياعبيط ؟ دى ست فلانه ! وألحوا على أن أزور دورهم . فاستسلمت فى ضعف مضحك ، وقادتنى زينب إلى الدار . حيث كانت أمها تقطف ورق الملوخيه فى نشاط وبشر . وقدمتنى إليها فرحبت بى أكرم الترحيب .

وساءلتهن . . . ألا يؤلمكن العيش هنا فى العزبة القديمة ؟ فأجبن جميعا : حفظ الله سعادة البك ، سيبنى لنا عزبة ثالثة إن شاء الله ، لأن الجديدة لا تتسع لنا جميعا . . . دور القرية القديمة لا تختلف عن الدور الريفية المعتادة

ولكن ساكنيها ينعمون بعيش هنىء إذا قيس بحياة غيرهم من القرويين ؟ ففى الدور خبز وافر وجبن مخلل . وفى أغلبها طيور وحبوب كثيرة . وعلى المواقد شاهدت أوانى البامية والملوخية والفاصوليا . ووجوه المزارعين تشعر بأنهم يحيون حياة بسيطة معقولة .

إلى العزبة الجديدة إذن ؟ لا وإنما إلى معامل التجارب وحظائر الماشية واصطبلات الخيول أولا ؟ وأشرفنا على فناء متسع رحب ، على جانبيه اصطبلات صحية جميلة التنسيق ، تضم أكبر وأجود مجموعة للخيول العربية الأصلية . وأعطيت الإشارة ففتحت الأبواب ، ووقف على كل منها سائس ممسك بعنان جواد وأشار إلينا الجميع مرحبين ثم سارت الخيول أمامنا فى استعراض دائرى عجيب ، يتقدمها « ابن ريدان » الجواد العجوز الذى سئم المجد وكسب معارك السباق ما يقرب من عشرين عاما حتى لم تعد تغريه ، فهو ينظر إلى بقية الخيول وكأنه يدل عليها بتجاربه وسعة علمه ، وكأنما تبدو له آمالها صغيرة ساذجة .

وتبعه خميس وعمره تسع سنوات ، مثال الجواد العربى ! ضامر البطن طويل السوق والعنق ، مرفوع الرأس فى شىء

من الدل والكبرياء . وانتهى الاستعراض « بابن ابن ريدان » الصورة المصغرة من « ابن ريدان » الشيخ فى سن الثمانية ، ومثال الجمال والقوة والشباب — أخبرنى يا دكتور! أئذا أعقب « ابن ابن ريدان » مهرا ، أفتسمونه ابن ابن ابن ريدان أم ابن حفيد ريدان ؟

فعلا ضحك الجميع وأنبئت أن الجمعية ستختار له اسما آخر كما ستغير اسم جواد أوربى الاسم .

وانطلقنا إلى ضيافة البقر والعجول ! فحيتنا صغارها بالقفز والوثب ، وحيتنا كبارها تحية رزينة حيث ضربت الأرض بحوافرها لتشعرنا بقوتها وهيبتها .

وشاهدت بقرة لها لون نادر لا عهد لنا به فى مصر ، وأخبرنى حضرة الطبيب البيطرى أنها أوربية ، اشتريت لتجربة الإنتاج المختلط ولأنها تدر لبنا أوفر من البقرة المصرية ، وإن يكن مقداره أقل مما لو كانت فى موطنها . فقلت : هذا كرم منها ! واستدرك الطبيب : لا ولكنها تأكل طعاما أكثر من البقرة المصرية — يا سبحان الله ! حتى البقر الأجنبى لا يعطى شيئا إلا بالثمن !

واسترعى سمعنا صياح الديكة ، فلبينا النداء وانطلقنا

إليها فاذا بها حبيسة فى أمكنة ضيقة ! هل جنت ذنبا ؟ لا ولكنها تجربة لمعرفة أثر قلة الحركة فى زيادة « السمنة » . وتركت حضرة الأخصائى يشرح نظرياته . وذهبت إلى أسراب الأوز التى فتنت عينى بريشها الأبيض الناصع المنفوش كأنه ريش النعام !

* * *

٤ - فى جنة الريف !

واحتوتنا بعد هذا العزبة النموذجية لتفتنى عن حياة المدن ، ولتثيرنى على المعيشة بها ! الجملة الصادقة التى تصف العزبة هى أنها « شىء لا يتصور بالخيال ولا يوصف بالكلام المبتذل المعتاد ، وإنما تعرف وتدرك بالعينين ! »

هنا تبدو عظمة الريف المصرى وروعة بساطته ! لا فى القرى الأخرى التى يشوه جمالها بؤس أليم وحياة شقية ، ومساكن مظلمة بائسة !

هنا يتحقق مبدأ حضرة الرجل المصلح فؤاد أباظه بك فى أن الإسراف فى الأناقة يجعلنا أصدق شعورا بألم البؤس ، وأرق قلبا على التاعس المسكين .

هنا يتخلص الإنسان من آلامه ومتاعبه وينسى كل شىء إلا روعة الجمال الذى ينكشف أمامه سافرا !

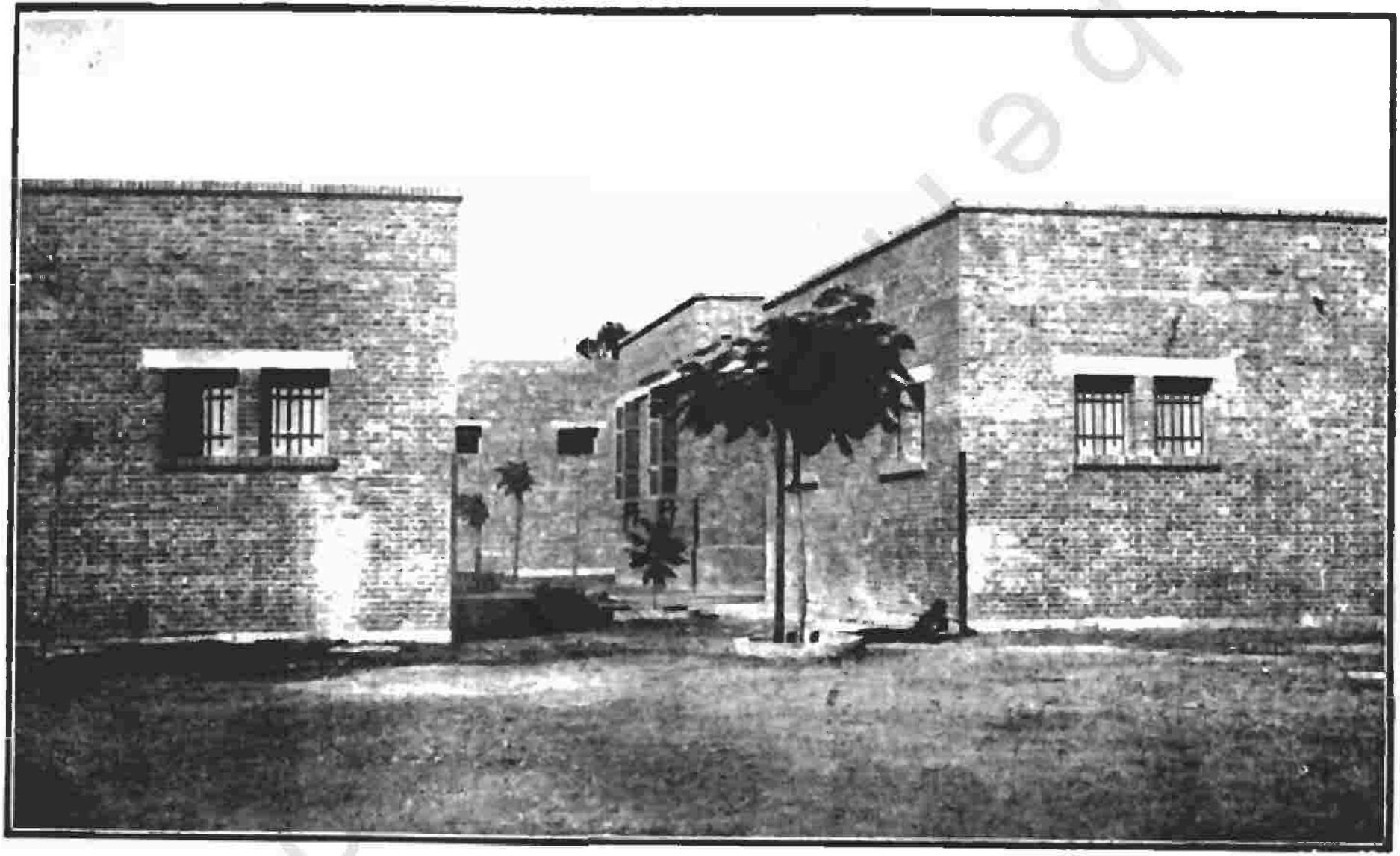

فتنة الريف كما تبدو فى القرية النموذجية

هنا يحتقر الإنسان رياء المدن ، وتبدو عظمتها ضئيلة تافهة أمام روعة الفطرة والبساطة .

أفى الريف نحن ؟ أجل ، ولكن فى أفتن جنة به !

المبانى لا ترتفع فى الجو ولا تحجب الهواء ، والطرق نظيفة واسعة تسمح للشمس بأن تلقى أشعتها على الدور طول النهار ، وتنتهى إلى ميدان متسع كأنه قلب القرية ، والغرف صحية عالية الجدران يملؤها ضوء الشمس والهواء ، والقرويون يمشون هنا وهناك ، وعلى وجوههم نضرة الصحة والقوة والرضاء ! والأطفال يملئون المكان بهجة ومرحا ، ويلوحون فى ثيابهم النظيفة البيضاء كالملائكة . . .

دخلت فى أول دار قابلتنى فأخذتنى روعتها وبساطتها ، هذا « الزير » فى الصدر محمولا على حامل ساذج من جذوع الشجر ، وحظيرة المواشى والمرحاض الصحى النظيف إلى اليمين ، والفرن إلى اليسار وفناء الدار رحب مكشوف يتجدد هواؤه فى كل وقت ، وتغمره أشعة الشمس ، وفى الصدر بهو يؤدى يمينا إلى غرفة نوم على أرضها قطعة حصير وعلى المصطبة - سرير الفلاح - كليم مصرى زاهى اللون ، وعلى الصندوق الخشبى وسادتان وغطاء ، ويؤدى يسارا

إلى حجرة واسعة أعدت للجلوس واستقبال الضيوف ، أنيقة على بساطتها وبساطة ما فيها . فقد صفت الأرائك الخشبية مغطاة بالأكلة ، وزينت الأرضية بقطعة حصير نظيفة . واسترعى انتباهنا نقطتان من الأهمية بمكان ، الأولى : كون الفرن بعيدا عن غرفة النوم ، والفلاح مولع بالنوم فوقه عند ما تشتد قسوة البرد فى الشتاء ! والثانية ، كون باب حظيرة الماشية مطلا على فناء الدار .

وتمهلت قليلا أفكر ! لو أن الفرن وضع فى غرفة النوم لضاعت الفائدة الصحية التى ضحت الجمعية فى سبيلها بآلاف الجنيهات ، ولتصاعد الدخان مختلطا بهواء الغرفة ليستنشقه أخونا الفلاح كما هو الحال فى القرى الأخرى ، ولو أبعدنا حظيرة الماشية عن الدار ، لفرقنا بين الفلاح وبين ما يحب ! فللجاموسة عند المزارع منزلة الابن ، ولن يهدأ فى نومه ما لم تملأ الدار بصوتها المنكر ! ما العمل إذن ؟ الجواب عند حلال المعضلات ، فؤاد أباظه بك صديق الفلاح .

فأما عن الفرن فهو يرى أن خير وسيلة تحقق رغبة الفلاح ، ولا تتنافى مع قواعد الصحة والاقتصاد ، هى أن

يخترق الفرن الجدار ، بين غرفة النوم وفناء الدار ، بحيث تكون فتحته فى الفناء لتقذف بدخانها إلى الجو بعيدا عن الفلاح ، بينما يكون جسم الفرن فى غرفة النوم ، حتى لا نحرم الفلاح ولا نحرم دليلنا عم الحاج أمين (وهو شيخ فى الثمانين من عمره يتمتع بصحه جيدة) من نشوة الاستمتاع بنوم الفرن فى الشتاء !

وأما عن حظيرة المواشى ، فالرأى عند سعادة حافظ عفيفى باشا ، أن يسد الجدار المطل على فناء الدار ، ويفتح لها باب آخر من الخارج تدخل الماشية منه وتخرج ، على أن نرضى لهف الفلاح عليها بفتحه صغيرة فى الجدار « كوة » يطل منها على ما شيته كلما أحس برغبة فى رؤيتها والاطمئنان عليها !

واقترحت أنا ـ العفو ! ـ أن يدق مسماران على جانبى إحدى زوايا غرفة النوم ، يوضع بينهما حبل من الليف يحدله العم أمين وتعلق عليه ملابس النوم والمناشف والجوارب حتى تجف من عرق أو بلل ، بدلا من وضعها رطبة فى الصندوق .

وذهبنا إلى المدرسة حيث رحب بنا حضرة الناظر فى

أدب جم غزير ، وأفرحتنى بساطة ثياب الأطفال وتقارب بيئة المدرسة من بيئة البيت ، وشاهدنا من ذكاء الأطفال عجبا ! وفى قسم البنات راعتنا نظافة الطفلات وجمالهن فى الثياب الزاهية البراقة بقدر ما أعجبنا بطريقة المناقشة فى درس الحساب ، وحسن استعدادهن وتفكيرهن !

وهتفت وأنا أضحك ! إنهم أسعد حظا منى ! كنت أجلس على أرض كتاب القرية وأنا أرتعد من (فرقلة سيدنا) التى أذاقتنى هولا !

وانتهينا إلى المضيفة ! أين منها شرفة أفخم الفنادق ؟ إنها أشبه بالجوسق الذى يتوسط الحدائق الكبيرة عادة . بناء رحب يسع نحو سبعين شخصا ، يغمره النور من جوانبه المكشوفة ، ويتوسطه صفان من الأعمدة تزيد من بهائه ، وإلى الجدران صفت الأرائك ليجلس عليها القرويون ليلا يسمرون ويتناقشون ، ترى كم هى فاتنة فى ضوء القمر الفضى الهادىء ، حين يهب نسيم الليل محملا بعطر الورود وشذا الأزهار ! ؟ ترى كم هى فاتنة فى المساء الساكن حين تحييها أسراب العصافير مغردة بلحنها الشجى الحنون ؟

وفى الجامع الجميل قرأت سورة الفتح ، ثم ابتهلت إلى

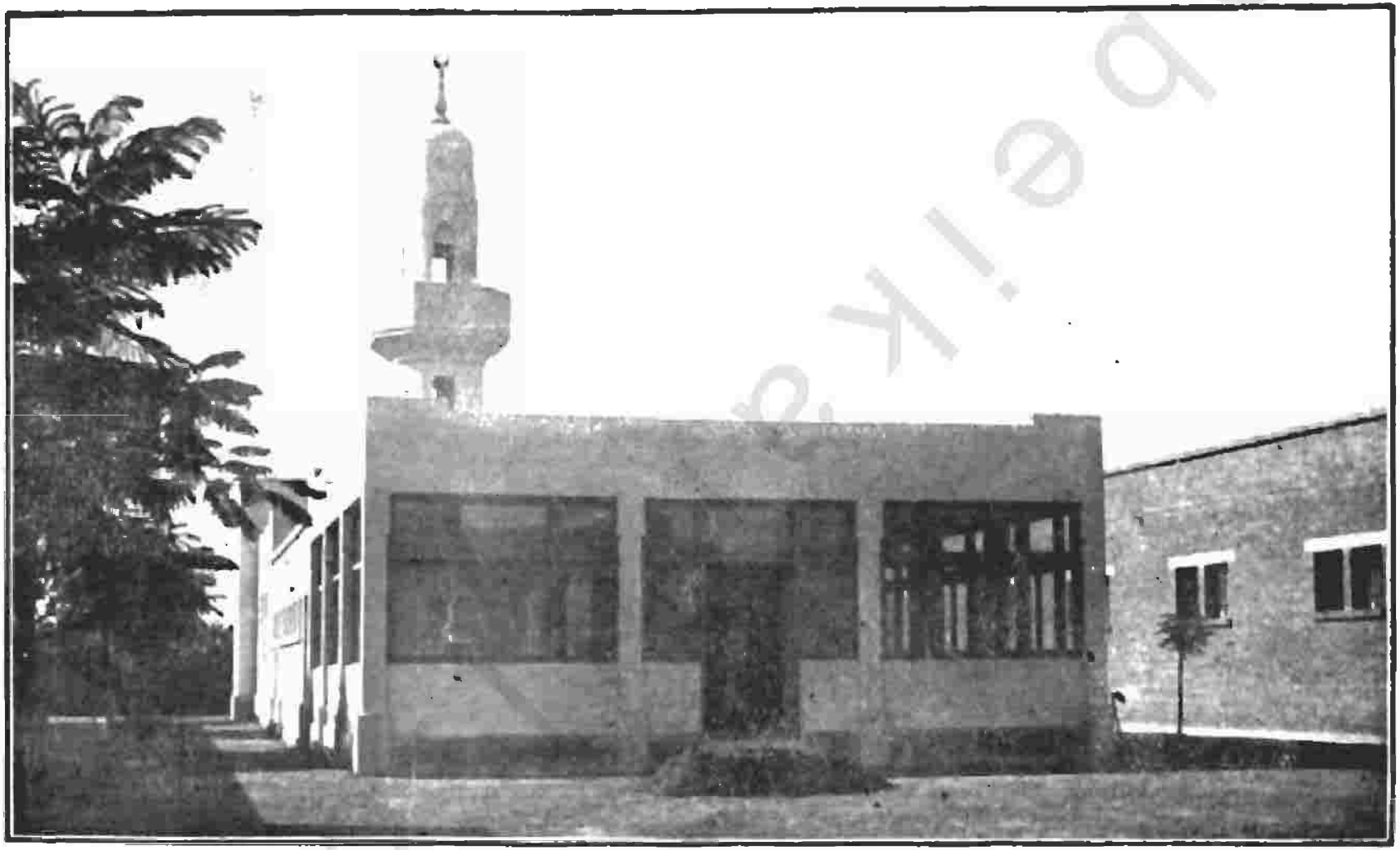

جمال وجلال

مضيفة قرية براغيم وخلفها المسجد

الله أن يوفق رجال الجمعية ، فيما يبغون من خير للفلاح ، يد مصر العاملة ، وخادمها المخلص القنوع ، ثم تركت الجمع أسيراً فى قيد الفتنة ، وجريت منفردة إلى دور القرويين !

كنت موقنة أنى سأحب نساء القرية فصح منى اليقين ! إذ ما كدت أفاجئهن حتى أحسست وأحسسن بأنى واحدة منهن ! غلبت على نشأتى الريفية ، فأخذت أقفز وأصيح أشد ما أكون سعادة وانطلاقاً ! وأبت كل واحدة إلا أن تضيفنى ! فاعتذرت مؤكدة أنى لا شك سأعود . . .

ونسيت نفسى ! ونسيت الزائرين والزائرات ، ونسيت أعمالى ومشاغلى بالمدينة ! عميت عيناى عن كل شىء إلا عن المكان الذى هو صدى لأحلامى منذ شاهدت الشقاء الأليم الذى يغمر الفلاح !

سرعان ماائتلفت بكل من فى القرية ! لم هذا ؟ أيكون لأنى ريفية المنشأ والنزعة ؟ أم يكون لأن فى قلبى جراحاً دامية من ذكرى شقاء الفلاح فتشبثت بالمكان الذى تسعد فيه فئة من الفلاحين ؟

وفى الدور شاهدت مثال الحياة التى يجب أن تمنح

للفلاح ، وأفتن ما راعنى صوت القرويات المرح ، يملأ المكان جمالا وحياة !

سألت كلا منهن على حدة : أسعيدات أنتن ! فكان جوابهن الواحد : وهل فى ذلك شك ؟ ثم تتجه كل منهن إلى السماء بقلبها ، تسأل الله للمنقذ النبيل سعادة وتوفيقاً .

وأحاطت بى الصديقات مودعات ، يسألنى متى تكون العودة ، قلت : قريباً إن شاء الله ، أقرب مما تتوهمن ! أفتحسبن أنى أجلد للفراق طويلا ؟

وتطلعت ورائى أسائل النفس : هل يمكن أن أنسى اللحظات السعيدة التى قضيتها فى عزبة بهتيم ؟ هل يقوى الزمان على طرحها فى زوايا النسيان ؟ وهتف بى قلبى أن اطمئنى ، فلن تنسى مادمت أنبض فيك !

وخلفت العزبة ورائى ، واعتمدت رأسى بين يدى وأنا أجتر الجمال الذى وعيته هناك فى ذهول حالم ! بينما كانت رائحة المانجو التى أتحفتنى بها الأخت الكريمة « السيدة هانم » تملأ أنفى ودماغى ! وبينما كانت زهرة الفل المرتعشة فى يدى الذاهلة ، توحى إلى أنى لا زلت فى جنة الريف !

موليني الفلاح

فى قسوة الظهيرة من شهر يونية ، حيث السماء تقذف الأرض بالنار ، وحيث الهاجرة تغلى الدم وتصهر العظم ، وقد احتمى الناس بالجدران من قسوة الطبيعة ولاذوا بالبيوت فرارا من اللهب ، وقف الفلاح وسط الحقل ، عارى الجسم إلا مما يستر العورة ، وعلى رأسه قبعة كبيرة من الخوص ، يود لو تحميه من أشعة الشمس المحرقة ، وقد سال عرقه فاختلط بالقمح الذى يحصده ! وكلما أنهكه التعب وأدركه الإعياء ، ألقى نظرة على العمل الذى ينتظره بين يديه ، وعلى الحقول الواسعة المترامية الأطراف تنتظر آلافا من المزارعين أمثاله ، يشقون طول العام فى انتظار موسم الحصاد ، وتساءل : ترى هل يشعر السادة المنعمون بالثمن الفادح الذى يدفعه الفلاح فى إعداد طعامهم الفخم ؟ ترى كيف يكون المصير لو مضى الزملاء يلتمسون الراحة ويحتمون بالجدران ؟ ولا يصل به التفكير إلى هذا الحد حتى يشعر

نشرت فى الأهرام الغراء فى ٤ من أغسطس سنة ١٩٣٥

فى ساعديه بقوة جديدة تطلب العمل ، وفى قلبه بنشاط يصرفه عن التفكير فى القصور وما تخفى جدرانها من راحة ونعيم ! وربما حانت منه التفاتة إلى جاره الفلاح ، فيرى أن ما قد حصده زميله أكثر مما حصد هو ، فتثور فى نفسه حمية أقوى ، ويظل فى العمل المرهق إلى أن يدركه المساء ، فيتراخى جسمه يطلب الراحة بعد الجهاد الطويل الشاق .

من الرجل ؟

إنه موسولينى ، زعيم إيطاليا وحاكمها الدكتاتور ؟ انسوا لحظة شخصية الجبار الذى قال عنه السير صموئيل هور وزير خارجية انجلترا ، إنه يبغى الانتقام من الأحباش ، لأنهم لم يقدموا بلادهم هدية لجشعه الاستعمارى ، وانسوا لحظة شخصية المستبد الذى يقذف بمعارضيه فى مستعمرات بلاده بعيدا عنه ، واذكروا فى تلك اللحظة التى نكاد نسمع فيها دوى المدافع ، موسولينى الفلاح !

* * *

لقد أراد موسولينى أن يرقب حال الفلاح الإيطالى عن كثب ، ليقرر بشأنها ما يراه ، فاتخذ لذلك طريقا أشبه

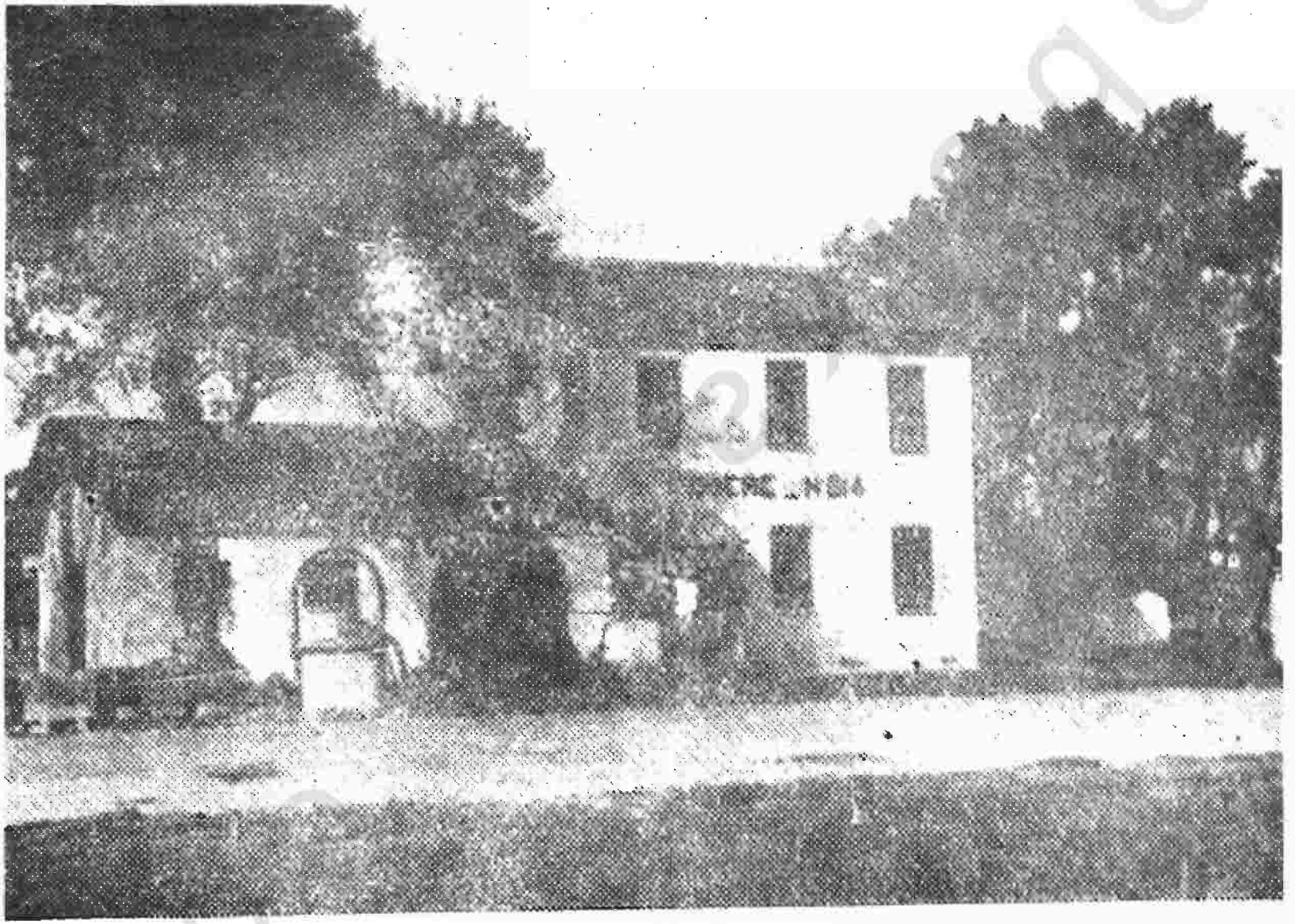

منزل مزارع بمنطقة الاصلاح فى إيطاليا

بطرق المربين . الذين لا يدرسون طبائع الأطفال مثلا ، إلا إذا نزلوا إلى مستوى تفكير الأطفال ! وفى شجاعة جريئة خلع ثيابه المثقلة بالأوسمة والنياشين ، وأمسك بالمنجل والفأس ! وبحث الإيطاليون عن زعيمهم . ليؤيدوه بهتافهم ضد انكلترا واليابان فى ثورتهما على سياسته الاستعمارية الفاضحة الكفيلة بتقويض الاستعمار كله . فإذا بهذا الزعيم وسط الحقول ! يحصد القمح عارى الجسم تحت لهب شمس الصيف المحرقة ، ووسط فئة من الفلاحين المنبوذين !

هل قرأتم خطبة المصلح الاقتصادى فؤاد أباظه بك عن حركة الإصلاح الزراعى فى إيطاليا ؟ إذا كنتم قد دهشتم لهذه النهضة الحاسمة العاجلة . فاذكروا أن موسولينى وضع خطة الإصلاح فى الحقل ، فبينما كان يمسك بالمنجل ويحصد القمح ، كانت عيناه تدرسان حال الفلاح وشقاءه ، وكان رأسه يدبر المشروعات ويرسم الخطط ، بعيداً عن المكتب الفخم ! وما أحسب أن نابليون يضج فى قبره إذا استعرت عبارته المشهورة ، وقلت : « إن موسولينى الذى يمسك بالفأس فى يمينه ، يمسك بمصير العالم فى تلك الآونة العصيبة فى يساره ! »

وإيطاليا ليست بلاداً زراعية ، ولا تعتمد على الزراعة فى ثروتها العامة ، فالأقاليم الزراعية فيها لاتعدو حوض نهر البو حيث يستمد النهر ماءه من الأمطار شتاء ومن الثلوج الألبية الذائبة صيفاً ، وحوض نهر أرنو وحول خليج نابولى ، ومحصولاتها الزراعية تنحصر فى القمح والتوت والكروم والزيتون ، وفيما عدا ذلك ، فإيطاليا بلد صناعى تجارى ، ولكن من أفرادها آلافا يشتغلون بالزراعة ، وهم أعضاء من جسم الأمة ، يؤدون واجباتهم نحوها ، فلهم أن ينالوا حقهم من الإصلاح ، وراح موسولينى يدرس حالهم عن كثب ، بل تواضع واختلط بهم وقاسى مشقة عملهم ، فثارت نفسه كزعيم أمة مسئول عن توفير الراحة لكل فرد من أفرادها ، واستطاع أن يغمر الزراعة والمزارعين بفيض من الإصلاح العجيب !

* * *

والآن إلى مصر !

مصر البلد الزراعى المحض ، الذى قال عنه سعادة كامل ابراهيم بك وزير الزراعة « مصر بلاد زراعية ،

بل هى من أصلح أقطار العالم للزراعة بما وهبها الله من تربة خصبة ومناخ صالح ، وبما وهب فلاحها من صبر على العمل وقناعة فى المطالب ، والزراعة فى بلادنا ما تزال هى المنبع الأول للثروة »

ظل الفلاح المصرى قروناً عدة يرسف فى أغلال البؤس والعوز والشقاء ، وكانت تتصاعد بين حين وآخر صرخات بعض الأفراد ، تهيب بالحكومة أن تيسر للفلاح الشقى المجاهد ، حياة ممكنة ، وهذه الصرخات تحدث صدى خافتاً لا يلبث أن تتلاشى ، وأخيراً تثاءبت الحكومة بعد نوم طويل عميق ، نعمت فيه الحكومات السابقة بأحلام ذهبية لا صلة بينها وبين فئة الفلاحين التعساء ، فألفت لجنة التعديل الضرائب !

نفهم أن يتفضل أعضاء اللجنة بزيارة القرى ، ولكن كيف يلمسون شقاء الفلاح وهم فى طريقهم إلى كفر المصيلحة وميت خلف ، يركبون السيارات الفخمة ويحيط بهم الموظفون المنعمون على حساب الفلاح المنكوب ؟

إن موسوليني رجل عصامى ، بنى مجده بيديه ، وذاق

فى طفولته ألوانا من الشقاء المرير ، وإذن فما كان أغناه عن التجربة القاسية ، تجربة الفلاحة والحصاد ، وله من حياته السابقة مقياس يفهم به درجة شقاء الفلاح ! ولكنه أدرك أن إصلاح حال الفلاح لا يمكن تمهيده وإعداده بين المقاعد الوثيرة ، وعلى الموائد الفخمة ، وأن كل إصلاح يأتى عن هذا الطريق هو نوع من الزيف والرياء !

* * *

هى جرأة منى أن أطلب إلى كبارنا زيارة للريف ؟ ما دام حسن النية متوفراً فلا بأس من الجهر بطلبى الجرىء المتواضع !

حين يشرف السادة أرض القرية لن أتصنع الجنون وأطلب إليهم أن ينزعوا ثيابهم الأنيقة ويمسكوا بالفأس ويشتغلوا فى الحقل ساعة ، كما فعل زعيم إيطاليا ! ولكنى أرجو أن تكون زيارتهم مجهولة المقصد والموعد ، حتى لا يحتشد السادة الموظفون المنعمون فى استقبالهم ، وينشئوا بأناقتهم وترفهم ستاراً زائفاً أمام أعينهم ، يحجب عنهم رؤية شقاء الفلاحين التعساء .

وستستقبلهم إذن جموع حاشدة من الأطفال ، حفاة

الأقدام عراة الأجسام إلا من ثياب مهلهلة لا تكاد تستر العورة ، وسيحملقون فى الضيوف الكرام بأعين ذاهلة لم تتعود رؤية ذلك النعيم ، فسادتنا حكام الأقاليم يحرصون دائما عند زيارة العظماء لأقاليمهم ألا تشهد عيونهم تلك الأجسام الريفية الخشنة القذرة ، وألا يلوثوا معدات الاستقبال الفخم ، بتلك المخلوقات التعسة التى تبدو كأنما هى غريبة عن البشر !

ويسرى الخبر فى القرية فيجتمع الفلاحون على رؤوس حقولهم ، وقد حمل كل منهم فأسه أو أمسك بزمام دابته ، وضم ثيابه على كمية من الأمراض ، يطالعون السادة بوجوههم الصفراء وأجسامهم القذرة المهدمة وبؤسهم البادى الأليم .

وحين يدرك التعب حضرات الزائرين ، أرجو ألا يمنحوا شرف ضيافتهم للعمدة وحده ، فحضرته قد يكون فى غنى عن هذا الشرف بشرف عمديته ، وإنما ألتمس أن يدخلوا أى دار من دور القرية ، ليزوا عن كثب كيف يحيا أخونا الفلاح وكيف يأكل وكيف ينام !

وفى فناء الدار بجانب حظيرة البهائم وأمام الفرن

وأكداس الحطب والغاب ، يجب أن توضح خطة الإصلاح للقرويين ، الذين يحترقون ليضيئوا للناس وما أحسب حضرات المسئولين فى حاجة إلى أن أنبههم إلى أن الفلاح مهما طال زمن إضاءته ، فلا بد أن يحترق إذا لم نمده بعوامل الحياة ، ولنا الله يوم يحترق ويتركنا نتخبط فى ظلمات المجاعة والشقاء .

حرث الأرض بالآلات الميكانيكية فى إيطاليا

والده .. هل يسمع المصريون ؟

أرأيتم ذلك الشاب البرىء الممتلىء بالحياة ، يحكم عليه بالإعدام فينتظر الموت يسير إليه ببطء ولكن بالتأكيد ، ويموت فى كل لحظة من هول التفكير فى الغد وعذاب الانتظار ؟ لقد رأيت ذلك بعينى ، وكنت أسير مع صديقتى القروية بحوار حديقة ليمون فى القرية ـ والحدائق الليمون فى المنوفية سحر عجيب ـ فامتلأ أنفى برائحته النفاذة العطرة ، وأحسست بنشوة ذاهلة أغمضت لها عينى وأنا أستنشق الشذا فى شهوة ونهم ، ثم تملكتنى رغبة جامحة فى أن أعمل لرأسى تاجا من الزهيرات البيضاء !

وقلت لصديقتى : اسمعى ، هذه رغبة لا أقاومها ، سميها ما شئت ، واختارى لها ما يحلو لك من أسماء . . . ولكن يجب تحقيقها !

وتقدمت أتطلع بين الأشجار الحاملة الأزهار والأثمار وتقدم منى صاحب الحديقة باسما مرحبا ، فألقيت عليه

نشرت فى الأهرام الغراء فى ٢٨ من يوليه سنة ١٩٣٥

نظرة عجلى ، ارتد إلى طرفى بعدها دامعا محزونا .

كانت عيناه مثل كرتين صغيرتين من شدة الورم ، وقد سال منهما صديد أزرق لوث وجنتيه الشاحبتين ، وبدا على المسكين كأنه يعانى مجهودا هائلا ، ويستنجد بما بقى له من قوة إبصار ضئيلة مولية ، كى ينظر إلينا ، ويرينا فى عينيه كرم الفلاح المصرى النبيل ! كان يبتسم لنا ، ولكنها ابتسامة باهتة ، أبلغ فى الدلالة على الألم من الثورة ومن البكاء . لقد جثمت كتلة لحمية منكورة فوق عينيه ، ولم يبق له إلا شق ضيق ينظر به نظرات الوداع ، وقد تعتريه نوبة إفراز الصديد فلا يرى شيئا !

وحدثته ، فأيقنت أنه يعرف مصيره المحزن ، وهو لذلك يود لو يقضى كل ما بقى له من وقت قبل أن يصير أعمى ، فى النظر إلى زوجه وأطفاله ، وفى التهام جمال حديقته التى ارتوت بعرقه ودمائه وقوته ، وهو يرى الزمن يلتهم فى جوفه تلك الأيام القليلة الباقية ، وعما قليل يسدل على عينيه ستار أسود حالك السواد ، لا يتزحزح ولا يريم ، ولا تجرى عليه سنة التطور والفناء مادام حياً ، وسوف يحجب عنه رؤية أطفاله وهم قطع من قلبه وكبده ، ومشاهدة زوجه

البارة التى قاسمته حلو العيش ومره سنوات طوالا ، ثم ينكمش ذلك الفضاء السافر الرحب ، حتى يتلاشى ويكتنفه السواد !

وقلت ما يردده رجال مصلحة الصحة : ما عذرك والبلاد يحتلها جيش من أطباء الرمد ؟ وفيم السكوت والمستشفيات تملأ المدن ، وتقدم إليك العلاج مجاناً ، وترد إليك بمشيئة الله نور البصر ونور الحياة ؟ فأجاب وهو يبتسم ابتسامته الحزينة : لاطبيب فى القرية ، وحتى لو وجد فلا طاقة لى بأجره وثمن ما يصف لى من دواء ، أما المستشفيات ، فان أستطيع أن أترك أطفالى وزوجى ؟ وأين أعيش فى بنها ؟ وأنى لى ثمن طعامى وأجر مسكنى إنى أفوض أمرى لله ! عليه توكلت وإليه أنيب .

* * *

وكما يجتمع أشتات الجند حين ينطلق فى المعسكر صوت صفارة القائد ، اجتمعت فى دماغى من أغوار سحيقة ، أشتات أفكار مبعثرة ، لم يكن ثم سبيل إلى تجمعها وترابطها لو لم ينطلق فى رأسى صوت الرجل .

فلمصلحة الصحة جهود موفقة فى خدمة الصحة ، ولكن

هذا التوفيق لا يمنع من الاعتراف بأنها جهود محدودة النتائج ، لأنها قامت على سياسة خاطئة . فالمستشفيات كثيرة فى المدن ، حيث الطرق مرصوفة يسهر على نظافتها عمال مصلحة التنظيم والمجالس البلدية والمحلية ، وحيث المياه نظيفة مرشحة موفورة ، وحيث أحقر المساكن يعتبر قصرا بجانب أبنية القرى ، وما أحسب أن فى هذا مجالا واسعا لانتشار الأمراض المتوطنة ، وإن وجد فما أحسبه بالخطورة التى هو عليها فى القرى .

يقينا إن المدن بحاجة إلى المستشفيات ، ولكن أما آن لنا أن نهتم بالقرية وهى أشد من المدينة عوزا ، وأحوج منها إلى الرعاية ؟ وأعرف أن مصلحة الصحة يرضيها ويقنعها كثرة المقبلين على مستشفيات المدن من القرويين ، ولكنه عدد محدود نسبيا ، استطاع أن يضحى بأرزاقه فى سبيل الصحة ، بينما الأغلبية الساحقة من القرويين ، لا تبارح القرية مهما برح بها الداء ، وإلا فهل يفرون من المرض إلى الجوع ؟ إن القول بأن الصحة سبيل الكسب فيجب تضحيته فى سبيلها ، فلسفة تصلح لملء الكتب والنشرات الصحية ، ولكن عقول الفلاحين الساذجة ،

لا تستطيع هضم هذه النصائح السلبية العميقة .

وأعرف أيضا أن المصلحة تود لو أتيح لها تعميم المستشفيات فى القرى ، ولكن إذا كانت تلك رغبة صادقة ، فما بال المصلحة جادة فى إنشاء المستشفيات بالمدن العامرة بها حتى لتكاد تصيبها التخمة ؟ إننى أرى - والرؤية أهم من مجرد المعرفة - أنه بينما يقام فى القاهرة مثلا . مستشفى فؤاد الأول ، وكان يغنى عنه مؤقتا مستشفى القصر العينى ، والرمد بالجيزة ، والحميات بالعباسية ، والملك بالمنيرة ، والأمراض الصدرية بالمنيرة أيضا ، والبلهارسيا والانكلستوما والكلب بفم الخليج ، وبينما يقام مستشفى الولادة بالإسعاف ، بجانب عشرات مراكز رعاية الطفل ، بينما يقام هذا وذاك ، لا يبذل جزء من ألف من هذا المجهود ، فى القرى المفلسة ، التى يقابل هذه المستشفيات عندها أنواع شتى من الأمراض . . . الرمد والبلاجرا ، وفقر الدم ، والبلهارسيا والإنكلستوما ، والملاريا ؛ كما يقابل مراكز رعاية الطفل ، ومستشفى الولادة ؛ حلاق الصحة والقابلات الجاهلات .

إن تلك المنشآت جديرة بالتقدير والإعجاب ، ولكن

كان يجب أن يسبقها إنشاء مستشفيات متواضعة ـ ولو فى خيام ـ فى القرى . والنفقات الباهظة التى تبذلها الحكومة بسخاء فى بناء مستشفى بالقاهرة ، يكفى لإنقاذ قرى مديرية بأسرها . ولست عدوة مثل هذا التجديد ، سيما فى عاصمة البلاد ، ولكن ليس مما يشرف الحكومة ولا سمعة المصلحة ، أن تشيد أفخم المبانى فى المدن حيث يمكن الاستغناء عنها مؤقتا ـ وتضن ببضعة جنيهات على كل قرية ، لإنشاء مستشفى متواضع ينقذ آلاف الأيدى العاملة والأجسام المريضة القادرة على خدمتنا .

وحسبك داء أن تبيت ببطنة * وحولك أكباد تحن إلى القد .

* * *

كلما ذكرت أن مشروعى الطبيبين المصلحين ، عبد الواحد الوكيل وشاهين باشا فى إصلاح القرى ، لا يزالان يتمتعان بالنوم العميق فى مكاتب المصلحة ، ظهر لى ضآلة الأثر الذى قد تحدثه كلمات فتاة نكرة مثلى ـ لا فى العير ولا فى النفير ـ ولولا بقية من الصبر يتماسك بها الصدر

وشيء من الأمل يتعلل به القلب ، لحطمت قلمى واحترقت فى صمت !

ولكن ألا يعزينا أن نعلم أن لجنة إصلاح مياه القرى ، التى يرأسها سعادة وكيل الداخلية للشئون الصحية ، تفكر جديا فى المسألة . وأن المشروع قد اعتمد له مليونان من الجنيهات فى خمس سنوات ؟ ترى هل تحقق الحلم وكان لصرخاتنا صدى ، لعل وعسى !

فلنرقب عن كثب ما ستفعله اللجنة ، وإلى أن يتم لها إنقاذ القرويين من الماء الملوث ، يجب ألا ننسى ضرورة التعجيل بإنشاء المستشفيات فى القرى ، وردم البرك ، وإصلاح المساكن ، ولمصلحة الصحة فى هذا كله الكلمة الحاسمة ، فهى المسئولة أمام الله والوطن والتاريخ ، عن حياة ٩١٥ر٣١٢ر١ من المزارعين ـ الإحصاء الزراعى الأخير ـ وما يقرب من مليون من القرويين غير المزارعين ، فى أمة يبلغ عددها خمسة عشر مليوناً ، ومن حقهم أن يعيشوا وألا يبلغ بهم الشقاء إلى الدرجة المحزنة ، التى وصفها الدكتور محمود عزمى القطان بقوله : « الماء الجارى ، والصابون ، والبشكير ، الذى لا يعد شيئاً فى نظر الخاصة

هو الترف بعينه عند الملايين من مواطنينا الفقراء ! »

* * *

والآن إلى وزارة الزراعة . . .

ما نصيبها من المسئولية ؟

لا أكاد أفكر فى هذا حتى تبدو لى حقائق تدفع اللوم عن وزارة الزراعة فى حرارة وإخلاص . . . فهى رغم كونها المشرفة على ثروة الأمة ، لا تنال من الميزانية إلا ٧٤٢ر٦٥٧ جنيها وهذا لا يزيد عن ٢ر٣٥٪ من مجموع مصروفات الدولة . ويدخل فى هذا الرقم التافه إيجار المزارع التى تؤجرها الوزارة ، وغير ذلك من أبواب المصروفات .

ولكنها رغم هذا المبلغ الضئيل تجاهد جهاداً ظاهراً فى محاربة الجراد والدودة وخدمة الزراع ، ولها فى الريف موظفون هم أكثر موظفى الدولة اتصالا بالزراع .

ولكن رغم هذا كله ، فالفلاحون لا يزالون كما كانوا يهيمون فى شقاء أليم ، وهم باعتراف سعادة كامل بك ابراهيم وزير الزراعة « أكثر الطبقات تأثراً بالأزمة ، لأنهم يضطرون إلى الاستدانة ، ويعجزون فى أغلب الأحايين

عن أداء ديونهم وفوائدها الفادحة ، وهم بعد هذا كله ، آخر من يتخلصون من أثقال الأزمة وأضرارها . »

وفى هـذا الشقاء المخيم على القرى ، دليل على أن أثر الإصلاح لا يتناسب مع فداحة مجهود وزارة الزراعة ، ويقينى أن هذا يرجع إلى أن العلاج بنى على تشخيص خاطىء للمرض ، فالوزارة حين تصدر عدة مطبوعات ، وصوراً رمزية للإرشاد ، تنسى أن القرويين جميعاً أميون ، وأن تلك الصور الرمزية تحتاج إلى مستوى راق من الفهم لا يتوفر حتى للعدد المحدود من القرويين ، الذين تعلموا مبادىء القراءة والكتابة ، وتجهل أن الرأى فى الريف المصرى لا يزال عند الاعتقاد بأن (فك الخط) هو العلم الغزير !

والوزارة حين تعمد إلى المذيع والخيالة والصحف لتبليغ رسالتها الإرشادية ، تنسى أن القرى على الإطلاق لا تعرف من هذا الترف الكمالى إلا اسمه وما يحيط به من خيال مغر !

أما الموظفون الذين تعتمد عليهم الوزارة فى الإرشاد ، فيجب أن نتركهم لتنفيذ القوانين وجمع الإحصائيات

وتحرير محاضر المخالفات . ومن الإرهاق لهم أن نطالبهم بإرشاد الفلاح ، ومن الحمق منا أن نطلب إلى الفلاح الوثوق بهم والركون إليهم ، وهو يراهم أداة إرهاق فى يد السلطة الحاكمة !

على أن مهمة وزارة الزراعة لا يجب أن تقف عند حد الإرشاد ، فواجبها الأول ترقية حال الفلاح الذى هو المنبع الأول لخزانة الدولة . إن الضرائب الفادحة التى تبلغ ١٧٠ قرشاً عن الفدان الواحد فى بعض الجهات — المنوفية مثلا — والتى تفرضها الوزارة على المخلوق التعس الذى لا يكاد يجد ما يتبلغ به ، هذه الضرائب ليس من الحق ولا من العدل بقاؤها ، فالفلاح المثقل الكاهل بها ، هو آخر من يستفيد منها ، ألا ولتذكر الوزارة أن إرهاق الفلاح بضرائب لا يستفيد منها شيئاً ، ولا تحتملها ميزانيته المحدودة ، وقسوة بعض محصليها فى تنفيذ القوانين الزراعية ، يدفعان بالفلاح إلى أيدى المرابين (وبنوك الرهونات) يعتصران دمه وقواه ، ويتركانه بعد ذلك كتلة ذليلة يغمرها عار الفقر والإفلاس ، وهو الذى يعمل ويعمل حتى تخور قواه !

إن إعلانات البيوع الجبرية ، التى تحتل أكبر مكان من الصحف الأهلية والصحيفة الرسمية ، دليل على تقصير الدولة فى حماية مواطنينا التعساء ، وإرهاقها إياهم إلى الحد الذى تباع فيه مواشيهم ودورهم ، وتنتزع اللقمة من أفواههم ، فمتى يتحرر الفلاح من كابوس الشقاء الجاثم على صدره يخنقه حتى ليكاد لا يسمح له باستنشاق الهواء ؟

حقائق عجيبة

سألتها فى ضراعة وابتهال أن تصحبنى فى جولة قصيرة ، فى أنحاء القرية المتشحة بالسواد ، وكان سكون القرية فى تلك الأمسية الحزينة يغرينى بالخروج ، ولو حرمت صديقتى القروية من ساعة تعودت أن تستريح فيها وتخرج بالنوم أثناءها من عالم الشقاء والأحزان ، كما قال شاعرنا أبو العلاء :

وفضيلة النوم الخروج بأهله
عن عالم هو بالأذى مجبول .

وكانت صديقتى نبيلة حين تلفعت بخمارها وتبعتنى فى صمت ثائر عجيب . وقال أبوها الشيخ : سأخرج معكما ولكن إلى أين ؟ قلت إلى حيث تقودنا أقدامنا ، ترى كم يخفى هذا الظلام من شقاء ؟ وكم من نفس تبيت فيه على الطوى ! ؟ فرددت الفتاة : أنا أفهمك . وصمتت لحظة ثم قالت : ما أشقانا بحنانك ! كان لنا أن ننعم بقربك طويلا لولم تثر شفقتك علينا ، ولو لم ينسك شقاؤنا جمال الريف .

نشرت فى الأهرام الغراء فى ١٨ من أكتوبر من سنة ١٩٣٥

وسرنا كأشباح تدثرت بأثواب الظلام . ولم نتحدث طويلا ، شغل كل منا عن الآخرين بأفكاره ! ولعل الشيخ كان يفكر فى دودة القطن تحتل فى تلك اللحظة ضيافة كارهة من حقله ، وتأتى فى نهم على ثروته وثمرة جهاده ، ولعل الفتاة كانت تفكر فى الأيام السعيدة التى قضتها فى ضيافتى ببلدتى الشاطئية الساحرة . أما أنا ففيم كنت أفكر؟ لا أذكر بالتحديد فقد اعترتنى ليلتئذ غيبوبة ذاهلة .

* * *

بدا المكان صامتا فى غير وحشة ، وخلا من كل صوت إلا من همسات خافتة لاهثة كأنها أنفاس الملائكة أو حركات أشباح غير منظورة تحتل المكان الوادع الجميل ، وكانت أمسية فاترة تغرى بالخمول . بينما وقفت أشجار السرو والجميز الضخمة المعمرة كالأشباح ، تئن فى صوت هامس ويلمسها الهواء فترتعش وتهتز ، ثم تتساقط أوراقها الذابلة الصفراء على الأرض الداكنة فى صوت مختنق أجش كأنه حشرجة الموت .

وأدهشنى أن أجد جمعا من صديقاتى القرويات ، يملأن المكان حولى ويفدن من كل حدب وصوب ، وعلا

ضحكهن المرح فى الفضاء الساكن ، وبدت فى عيونهن رغبة مخلصة صادقة فى إشعارى بالراحة والاستمتاع .

وكان نقيق الضفادع يبعث فى القرية الساكنة نوعا من الحياة المجردة ، فجعل منها مرح الفتيات حياة مرحة ، فيها قوة وفيها شباب !

ولم يكذب الشيخ حين أكد لى أن وراء ثياب القرويين البالية المهلهلة ، نفوسا كريمة عفة ، وأن فى الأبنية القروية الحقيرة قلوبا رحبة نبيلة ، تسكن فى الهياكل الشاحبة المريضة ، فما مررنا بدار إلا وألح أهلوها فى إضافتنا لتناول العشاء وقدح القهوة ، ولم يكن ينجينا من إلحاحهم وتشبثهم أيماننا المغلظة بأننا تعشينا والحمد لله ، وأن معدة الفرد منا لا تسع عشرات « أقداح القهوة » وكان كل قروى يقول : « شرفونا ياسادة ، الخير كثير والحمد لله » كم وددت لو أن لى طاقة على تحمل ضيافتهم كلهم ، حتى لا يذلهم على بعوزهم وفقرهم !

* * *

فيم المرح ؟

لم أجرؤ على الجهر بسؤالى وتعكير صفو صديقاتى

وهن يبعثن فى حواشى الليل ، بأغانيهن المرحة الفتية ، روعة تنسى الإنسان ماهن فيه من بؤس . وحاولت ان أندمج معهن فى أفراحهن وأشترك فى الغناء الريفى الساذج . فأقعدنى عن ذلك عمق شعورى بعوزهن ، كنت أعلم يقينا أن إحداهن تركت دارها وما فيها شىء يؤكل . وشاهدت أخرى متخفية فى بنها تبيع أقراصا للوقود صنعتها من روث البهائم ، بينما لمحت ثالثة تسطو على لقيمات قذرة وضعت فى حظيرة المواشى بأحد الحقول ، وتمسحها بطرف ثوبها ثم تلتهمها فى شهوة عجيبة ، فكيف لهن هذا الصوت الحنون ينطلق داويا رنانا فى سكون الليل البهيم ؟ وهمست فى أذن والد صديقتى أسأله إنقاذى من حيرتى ، فلمعت عيناه ببريق الحزن وقال :

يظهر يا ابنتى أنكم فى المدن لن تلمسوا حقيقة ما نحن فيه من بؤس مستبد . إلا إذا متنا جوعا وتراكمت جثثنا بجانب حقولنا ، وإلا فما دمنا نتحرك ونجىء ونروح ، فالفلاحون بخير ، وفيهم القوة على تعمير الخزانة وإنتاج الخيرات . للكثيرين منكم آراء عجيبة لا تجوز فى غير مصر . لقد شاهدت بعينى جميع الكبراء يسيرون فى

جنازة المغفور له عدلى يكن باشا كما اجتمعوا فى تشييع كل كبير من قبل ، وكما سيجتمعون من بعد ! رأيتهم يتحدثون ويتصافحون فنسيت الأقذار التى تلوث بعض الصحف السياسية ، والفضائح التى تكال جزافا لكبار المصريين ، وتساءلت لم لا يتحدون هكذا فى إنقاذ مصر ؟ ولم لا تتفق كلمتهم على الإصلاح ؟

قلت وقد أخذتنى فلسفته الرائعة : ذلك حق يا أبى !

قال وهو يتأمل : والفلاح يا ابنتى ؟ أؤكد لك أنهم لن يشعروا بحاجته إلى الإنقاذ العاجل إلا إذا مات الفلاحون جوعا . إن شقاءنا ليس وليد اليوم ولكنها وراثة مثقلة يتوارثها الحكام منذ آلاف السنين . لقد لمست بيدك نوع الشقاء الذى نهيم فيه ، ومع هذا تخدعك ابتسامة هؤلاء الفتيات ويغرك مرحهن فتتساءلين فيم المرح ؟ ولو كنت ريفية صميمة لأدركت مثلى أن وراء هذا الضحك نفوسا شقية تجتر آلامها ، ويهد الجوع والمرض كيانها هدا . إنها رحمة الله يا ابنتى ، تنزل فى قلوبهن ساعة يجتمعن حول الضيف ، فتنسيهن إلى لحظة قصيرة ثورة الجوع ومرارة العيش ! إنه الصبر يا ابنتى ، تعودناه منذ تفتحت عيوننا على القرية المهملة

المتروكة ، ولولا ذلك لهدمنا العوز والحزن ، ومن لم يهدمه الحزن انتحر بيديه !

قلت : إنى لأعرف يا أبى أى بؤس تهيمون فيه . إن أجسامكم المنهوكة تعمل فى الحقل وتعمل فيها الأمراض ، ولهذا أسالك السر فى تحمل أجسامكم . قال : الصلاة يا ابنتى وعزاء الايمان والتسليم لما كتب علينا ، والنوم المبكر والاستيقاظ المبكر ، وشىء من القوة تمدنا به الشمس والهواء ، والحياة العائلية الفطرية التى يتعاون كل فرد فيها مع الآخرين فى تسهيل مشاق العيش ، ولولا ذلك يا ابنتى لما كان هناك عيش أو كان ثم بقاء .

وسكت الشيخ ، فأطرقت فى ذهول أصغى إلى نغمات صوته الحزين ، تتجاوب فى صدرى وقلبى حافلة باللوعة والأنين . وزميلاتى المخدوعات يحسبن أنى أصغى إلى أصواتهن الحافلة بالجمال والفتون !

* * *

أتحسبون الفلاح الشيخ مبالغا ؟ إذاً فأنصتوا إلى الحقيقة يعترف بها الدكتور أحمد حسين مفتش قسم التعاون فيقول « إن الزراع المصريين — وغالبيتهم العظمى من صغار الملاك — يعيشون عيشة لا تليق بشعب ناهض راغب فى

التقدم . وذلك رغم ظروفهم المواتية من جو معتدل ، وتربة خصبة ، هذا إلى جلدهم فى العمل ، وقناعتهم باليسير من مطالب الحياة »

* * *

لقد بلغت ضرائب الأطيان والقطن فى سنة ١٩٣٣ ستة ملايين من الجنيهات إلا قليلا . فإذا أضفنا إليها ما يقرب من ستة ملايين أخرى ، وهى ما تكسبه الدولة من الفلاحين بطريقة غير مباشرة فى الرسوم الجمركية لغير الدخان البالغة ٧ر٢٧٤ر٤٧٢ جنيهاً مصرياً ، ورسوم الخفر البالغة مليوناً ونصف مليون من الجنيهات ، كان مجموع ما يدفعه الفلاحون اثنى عشر مليونا من الجنيهات ، وذلك من جملة إيرادات الدولة التى بلغت ٣٧١٣٩٨٨١ جنيهاً مصرياً ، فى ذلك العام . وهذا يقرب من ثلث إيراد الدولة ، ففيم إهمالنا للزراعة ، واحتقارنا للزارعين ؟ أفيحسب البعض أن فى استطاعة مصر الاستغناء عن ثلث إيراد الدولة . وعن قمح الفلاح وقطن الفلاح وجهاد الفلاح ؟

كل ما أرجوه هو ألا يخدعنا تحمل الفلاح آلافا من السنين ، فقد يتحمل سنوات أخرى ، ولكنى أعتقد أن

قوة التحمل فيه قد تلاشت ، وأن الصبر على شقائه لم يعد مستطاعا ؟ وإذا ظننا غير ذلك فويل لنا منا ، فنحن نقتل أنفسنا بأيدينا .

إن المسائل الزراعية تحتل مكانا ظاهراً من اهتمام المسئولين ، ولكننا تعودنا أن نهتم بها على حساب الفلاح المسكين ، وقد حان الوقت لنفهم أن إنماء ثروتنا الزراعية لن يكون عن غير طريق إصلاح القرية .

فتياتنا والتعاليم الزراعى

فى كثير من المرارة والألم ، قرأت خبر رفض قبول الفتيات فى كلية الزراعة ، وأذهلنى أن يحال بينهن وبين المدرسة الوحيدة التى تحتم ظروفنا وبيئتنا الزراعية وجوب قبولهن فيها .

وفى الحقيقة ماذا يغرى الفتيات بهذه الكلية ؟ هل يتطلعن إلى وظائف ظفر بها زملاؤهن الطلبة ؟ أم تعجبهن الحياة الريفية التى يرشح خريجو الزراعة للمعيشة فيها ؟ أما عن مستقبل طلبة الزراعة فليس فيه مايغرى فى مثل تلك الظروف العصيبة ، التى بلغ من قسوتها أن عين بعض حملة شهادة الزراعة العليا ، بأجر يومى كما يعين صغار العمال ، وأما عن حياة الريف فليست فى حالتها الراهنة إلا حياة قذرة ألمة يغمرها العوز والشقاء والظلام ، ويبقى بعد هذين . الميل الطبيعى وحده . وهو الذى يدفع الفتيات إلى صرف خمس سنوات — هى خير سنى حياتهن — فى تعلم الفن

نشرت فى الأهرام فى ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٣٥

الزراعى ، وهذا الميل القوى هو أقوى عوامل النجاح ، وهو جدير باحترامنا وتقديرنا .

والأساس الطبيعى المعقول لإنشاء المدارس هو أن تنشأ نتيجة لحاجة الشعوب ، ولست أعرف مدرسة فى مصر تلح الضرورة فى انتساب الفتيات إليها مثل مدارس الزراعة .

* * *

الريف المصرى محروم من الروح النسوية الرقيقة ، تهذب خشونة الحياة فيه ، وتنير ظلامه بنور الجمال والسلام ، وتحيل حياته القاسية الفقيرة إلى حياة فتية فيها سلوى وفيها عزاء ، وسيظل هكذا محروماً من تلك الروح ما دامت الفرصة لاتتاح للفتاة كى تحب الحياة الريفية البسيطة الساذجة ، مع أنها لو درست تلك الحياة ، لأحبت القرى والمزارع وأسرفت فى ذلك الحب ، فإن الجمال الريفى إذا أتيح له أن يتخلص من شوائب القذارة والفقر والمرض ، لبدا رائعاً جميلا أخاذاً .

الفتاة المصرية تفر من الريف وتعتبر نفسها شقية تعسة إذا قدر لها أن تحيا هناك بعيدة عن المدن الحافلة بالمغريات

وترفض الزواج من ساكن القرية مهما كان له من ظروفه ومؤهلاته ما ينسيها مرارة التضحية التى تتوهمها . وهذه ظاهرة خطرة لها ما بعدها ، فما دامت الفتيات المتعلمات يبغضن الريف ، فسوف يظل مغموراً بما يتخبط فيه من ظلام .

تكمن فى الريف المصرى أسرار جمال قوى يكاد يجعله أشبه بالجنة ، لولا هذا البؤس المظلم الذى يغمر القرى ، ويفرض على القرويين التعساء حياة وضيعة شقية ، ولقد أتيح للجمعية الزراعية الملكية أن تكشف لنا عن جمال الريف ، حين خلصت قريتها بهتيم من شوائب القذارة والمرض الذى يغمر القرى عادة ، فبدت القرية النموذجية ، جنة وسط المزارع والحقول ، وما أحسب الجمعية ندمت على عشرة آلاف الجنيهات التى صرفتها فى إنشاء تلك الجنة وحسبها أنها أنقذت مزارعيها من حياة ذليلة ، يحياها بقية الزراع فى مصر ، وما أشك فى أن انتاجهم سيزيد ويعوض الجمعية عما بذلته .

فلم لا نترك الفتيات يحملن الرسالة ، ويتمتعن بذلك الجمال ؟

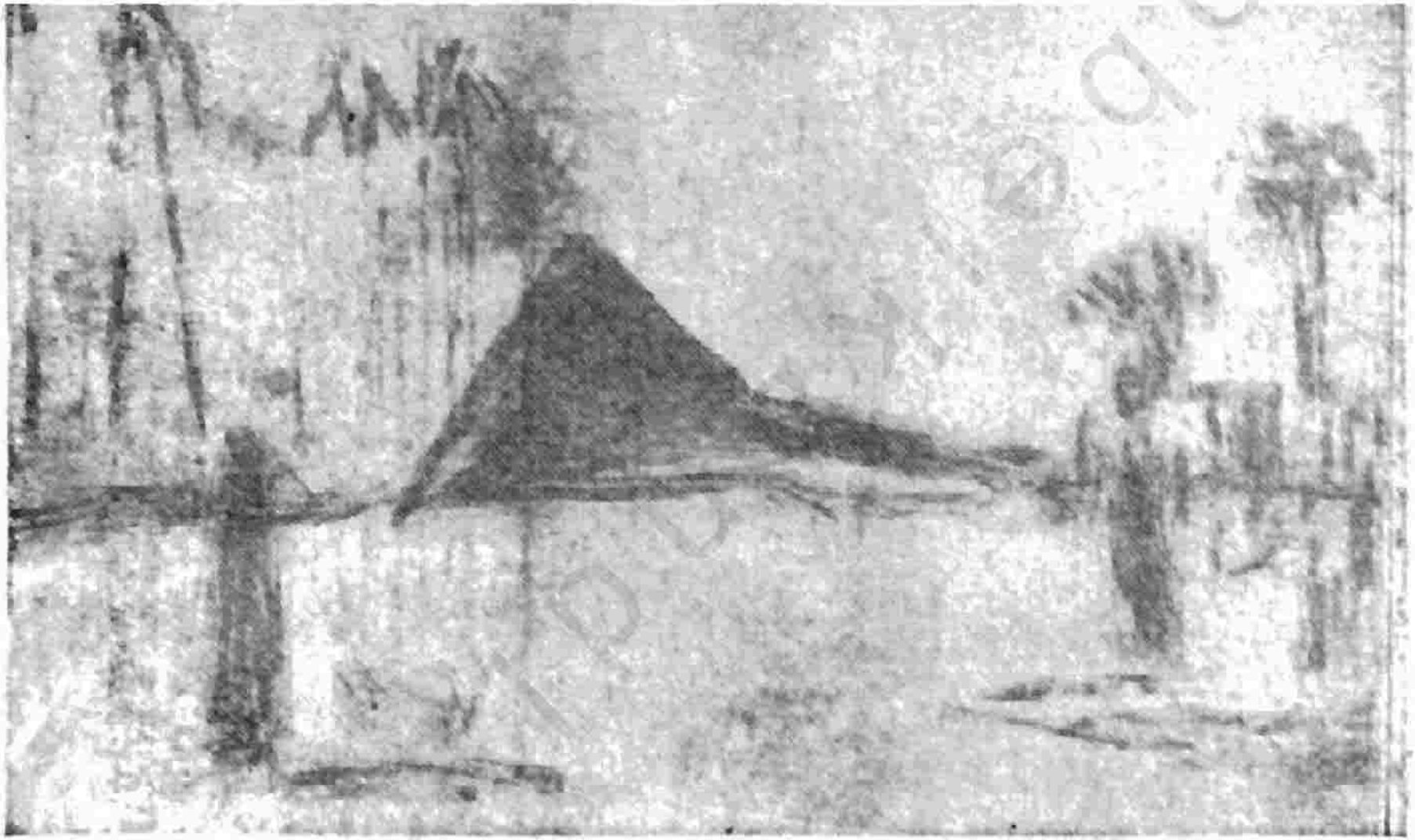

روعة الفن ، وسحر الطبيعة

دراسة الزراعة تحبب الفتاة فى الريف وتقربه إلى قلبها ، وتفتح عينيها على الجمال المتغلغل فى المزارع والقرى ، وتثير فى قلبها نوعا من الرثاء للقرويين ، والرغبة المخلصة فى إسعادهم، فإن كنا لا نحترم ميل الفتيات إلى الدراسة الزراعية، فلا أقل من أن نصل بين الفلاح الوافر الشقاء ، وبين قلب الفتاة الممتلئة رقة وحنانا ، ولا أقل من أن نمهد السبيل لمعيشة عنصر نسائى مثقف فى القرى المصرية .

* * *

لو أتيح لنا أن نقوم بإحصاء شامل عن عدد الفتيات اللائى رفضن الزواج من الموظفين فى القرى ، لهالتنا النتيجة ولروعنا أن يقف جهل الفتيات بجمال الريف ، فى سبيل إنشاء أسر متعلمة تبعث فى الريف شيئاً من الحياة ، ولآلمنا أن يخسر الوطن تلك الأسر الجديدة النافعة ، كما آلم ولاة الأمور فى فرنسا ، حيث لاحظوا تلك الظاهرة الخطرة، وهى فرار الفتيات من سكنى الريف ، وكان من المحال أن يجد المهندس الزراعى فتاة متعلمة تقبل الزواج منه ، وترضى بالحياة الريفية الجافة ، وكاد الشبان ينفرون من التعليم

الزراعى لولا أن تداركت الحكومة الأمر ، فأنشأت مدرستين زراعيتين للفتيات ، إحداهما للغنيات المثقفات اللائى يردن دراسة الزراعة كفن مسل رابح ، يتعلمن فيها فلاحة البساتين وغرس الفاكهة وزراعة الخضر والتكاثر الخضرى ، وهذه الدراسة تعدهن لحياة ريفية سعيدة ، فكانت النتيجة أن غمرت القرى هناك موجة من التهذيب ، أتاحت للفلاح الشقى المجاهد حياة ممكنة ، فى المناطق التى سعدت بوجود هذه العائلات المتعلمة الحريصة على النظافة والجمال . والمدرسة الأخرى ، للقرويات اللائى يشتغلن بالزراعة ويشاركن أزواجهن فى العمل الزراعى ، فيتعلمن الطرق الصحيحة النظيفة لحلب اللبن وصناعة مستخرجات الألبان وتربية الطيور والنحل والماشية ، فيكون للفتاة من هذه الدراسة صناعة رابحة مضمونة الفائدة ، تخفف عن أسرتها عبء الفقر وقسوة الحاجة .

وما أحوجنا فى مصر إلى هذين النوعين من المدارس ، حتى نقرب بين القرية وبين الفتيات المتعلمات ، فلا ينفرن من الحياة فيها ، وحتى تجد الفتاة القروية من دراستها عوناً لها ولأسرتها على شظف العيش وقسوته ؟

إن نساءنا القرويات جميعا يشتغلن بالزراعة ، فلم لانوجههن توجيها صالحا ولعل فى استطاعتهن إنقاذ ذويهن من الفقر الأليم . عن طريق الصناعات الزراعية الرابحة ؟

لو أتيح لأحدنا أن يشهد كيف تحلب نساؤنا القرويات اللبن . وكيف يجهزن الجبن والزبد . لأنف من مجرد رؤيتهما ، فالفتاة تذهب أحيانا إلى البقرة وآثار روث البهائم لاتزال فى يدها ، وتضعه فى إناء قذر يعلوه التراب ، ثم تغطيه بقليل من حشائش الأرض ، بينما يشهد الإنسان فتاة سويسرية تحلب اللبن فيود لو يلتهمه من يدها دافئا ، وينسى أمام روعة النظافه وإغرائها ، حكمة الإغلاء وأناقة الموائد .

* * *

لقد عارض الكثيرون فى مسألة قبول الفتيات بمدارس الزراعة ، وكانت حجتهم فى ذلك أن الوظائف الزراعية التى يرشح لها خريجو الزراعة تقتضى جلداً وقوة ليسا للفتاة ، وأن الدراسة الزراعية تتطلب مجهوداً شاقاً هو أكثر من أن تتحمله الأنوثة الضعيفة ، فاما عن مسألة الوظائف الزراعية فيدحضها كون الفتاة تلتحق بمدرسة الزراعة وهى

تعرف يقيناً أن الحكومة لن تتعهد بتوظيفها ، وليس يكفى أن نمنع الفتيات عن مدرسة ما ، لمجرد توهم أنهن قد يطالبن بوظائف لا تتقيد الحكومة بها .

وأما عن صعوبة الدراسة فقد أثبتت الفتيات فى جميع الدراسات والأعمال التى قمن بها ، أن لهن جلداً على العمل وتصبراً ، هذا إلى أن الفتيات لا يجهلن هذه الصعوبة ، بل يقدرن مداها حق التقدير ، قبل أن يطلبن الالتحاق بتلك المدارس .

على أن النساء قد اقتحمن على الرجال كل شىء . فالتحقن بمدارس الطيران وفيها من الخطر على الحياة مالا تقاس بمثله مشاق الزراعة ، والتحقن بكليات الحقوق مع أن القضاء لن يعطل يوما ما لقلة المحامين الرجال ، والتحقن بمدارس التجارة وللتجارة مفاجآتها الرهيبة ، ومواقفها الدقيقة ، وهن فى كل هذه الحالات يجدن وسيلة للكسب ولكن على حساب الشبان ، ويشغلن وظائف لا تتفق وطبيعتهن وما يجب لأنوثتهن من حرص وحياء ، وكان يجب أن يشغلها شبان عاطلون الآن ، ولكنا رغم هذا خضعنا للظروف الشاذة التى خلقتها الحرب العظمى ،

وتركناهن يقتحمن على الرجال تلك الأعمال ، فلم نحول بينهن وبين التعليم الزراعى الذى يتفق واستعدادهن ، ويلائم بيئتهن المصرية ، وسيكون من ورائه إصلاح القرى ، وإنماء الثروة القومية التى تعتمد على الزراعة كل الاعتماد ، وإيجاد عمل مسل رابح لكثير من الفتيات ، دون المساس بمصالح الشبان ؟

* * *

بعد هذا كله لا أتردد من الاعتراف بأن مدارس الزراعة فى برامجها الحالية ، ونظامها الراهن ، لا تكاد تصلح للفتيات ، ذلك لأنى لا أغفل الفرق بين طبيعتى الفتى والفتاة واستعدادهما ، بل وألح فى التفريق بينهما فى برامج التعليم بحيث يراعى فى هذا التفريق ، اختلاف مركزهما المستقبل فى الحياة .

فى البرامج الحالية لمدارس الزراعة ، بعض مواد ترهق الفتاة ، كعملية التدخين والحرث والعزق فى حقول التجارب ، ولئن كان المستقبل للآلات الزراعية التى ستعفى الطلبة من مثل هذا الاستعداد ، إلا أن مسألة تعديل البرامج أمر سهل ، متى سلمنا جميعا بوجوب قبول الفتيات فى مدارس الزراعة

وما أحسب أن كلية الزراعة يعز عليها تأليف لجنة عاجلة ، تعد نظاما خاصا للفتيات بتحوير برامج الطلبة ، كما تم فى التعليم الثانوى هذا العام .

إنى أعتقد يقينا أنه متى توفرت لدينا الرغبة فى قبولهن ، ومتى سلمنا بأهمية ذلك القبول ، فإن التعديل سهل ميسور كما كان سهلا ميسورا فى التعليم الثانوى ، حيث تم فى فترة قصيرة معقولة . ولم يمنع اختلاف البرامج ، تساوى الجنسين فى الشهادة العلمية والدرجة .

مدارس الزراعة هى المدارس الوحيدة التى يمكن أن تتعلم الفتيات فيها علم أصول النبات والحشرات والبكتريولوجيا والكيمياء ، والصناعات الزراعية وفلاحة البساتين ، وسوف يكون منهن طلائع الإصلاح فى القرى ورسل النهضة بين أهلها .

على أنى لا أطالب بقبولهن فى كلية الزراعة فقط ، وإنما ألح فى إنشاء مدارس زراعية أولية ومتوسطة فى عواصم المديريات ، فقد آن الأوان لكى نهتم بالتعليم الزراعى ونشر ثقافته فى بلادنا الزراعية التى أقامت مجدها على أسنة الفئوس .

* * *

فلنفسح الطريق للفتاة كى تتغلغل فى الريف وترى بعينيها أى نوع من الشقاء يتخبط فيه الفلاح ، وأية حياة ذليلة مريضة يحياها ، ولنتركها تدرس الزراعة لتؤدى رسالة الحياة فى هذه القبور المهجورة التى طال اشتغالنا عنها ، ثم فلنذكر دواما أننا لا تنقصنا وسائل إصلاح القرى بقدر ما ينقصنا صدق الشعور بشقاء الفلاح ، وصدق التقدير لحاجتنا إلى الفلاح ، وأخيرا صدق الاهتمام بإصلاح الفلاح !

اقتراح جدى

ترددت طويلا قبل أن أكتب كلمتى هذه ، وتهيبت البحث فى مسائل فنية ليس من الحكمة درسها على المكتب ، وليس من السهل إيجاد حلول عملية ممكنة التنفيذ ، مهما تراءت لنا حلول نظرية كثيرة .

فى وصف شقاء الفلاح ، لم أكن فى حاجة إلا إلى عين تبصر ، وقلب يحس ويشعر ، وقلم يترجم ويعبر . وكانت خبرتى العادية فى الشئون الاقتصادية ، واتصالى بمعيشة الزراع ، يسهلان على تلك المهمة ، ولكن مسألة وضع الخطط الإصلاحية للريف ليست كذلك ، إنها تقتضى خبرة فنية لا أجرؤ على ادعائها ، وتستلزم بحوثاً عملية منقحة لا أتحمل إمكان القيام بها .

كان هدفى الوحيد فى بحوثى الريفية ، إثارة الاهتمام بإصلاح القرى ، وكانت وسيلتى إلى تلك الغاية ، محاولة وصف البؤس الأليم الذى يهيم فيه الفلاح والحياة المنحطة

نشرت فى الأهرام فى ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٣٥

التى يحياها . فأما طريق الإصلاح فأنا أتركه للمسئولين عن شقاء الفلاح وللفنيين وذوى الخبرة .

ولكن كيف يضع الفنيون خطة الإصلاح ؟

فى هذا فقط أستطيع أن أقترح اقتراحاً جديا أرجو أن يكون له صدى .

* * *

مسألة إصلاح القرية ورفع مستوى معيشة الزراع الأشقياء ، تقتضى دراسة كاملة عاجلة لنواحى الانحطاط الذى يهيم فيه الفلاح ، ويلزمها بحث شامل لحياته تشترك فيه الهيئات المسئولة جميعاً ، وفى مقدمتها وزارتا المالية والزراعة ، ومصلحة الصحة وإدارة الأمن العام وقلم قضايا الحكومة ، ثم الجمعية الزراعية الملكية وجمعية خريجى مدارس الزراعة . فلو عقد مؤتمر زراعى عاجل يتوفر على بحث الداء ووصف الدواء ، لتيسرت للفلاح الشقى المجاهد حياة ممكنة معقولة ، ويقينى أن الجهود الفردية الموزعة بين الهيئات المختلفة بطيئة الأثر وإن كانت محققة الفائدة ، والرأى عندى أن تتعاون هذه الهيئات جميعاً فى إيجاد خطة

منظمة حاسمة للإصلاح . فتقوم وزارة المالية بتخفيف الضرائب التى ترهق الفلاح وتدفعه قسرا إلى أيدى المرابين الظالمين ، وتتكفل وزارة الزراعة بحماية الملكية الصغيرة فى بلاد يقول عنها عميد كلية الزراعة إنها «عريقة فى الزراعة والزراعة هى جل رأس مالها» والإرشاد المنتج الذى يسهل على الفلاح إدراكه أولا وتنفيذه ثانيا ، وفى الوقت نفسه تخصص مصلحة الصحة أكبر مجهود ممكن فى إنقاذ الفلاح من المياه الملوثة والمساكن غير الصحية والبرك التى تحمل عوامل الفتك بالفلاح المسكين والقضاء عليه . بينما تتكفل إدارة الأمن العام وقلم قضايا الحكومة بالإشراف الفعلى على العمد الظالمين وحماية الفلاح من استبداد بعضهم بقانون حازم صريح ، وإلغاء قانون العونة الذى لا يحترق بناره إلا الفلاحون الأشقياء ، ويأتى ذلك بتفسير قانون تحريم السخرة فى صالح الفلاح وعدم التقيد بحرفية القانون ، والتغلغل فى روحه لنفهم أن قانون العونة ليس إلا نوعا من السخرة البغيضة ، وبجانب هذه الجهود المتكاتفة تنتفع الأمة بنشاط الجمعيات الزراعية فى إصلاح الأراضى البور

وإنشاء مناطق زراعية تساعد على ترقية حال الفلاح وتخفف الضغط الهائل على الأراضى المنزرعة الآن والتى يسكنها ٩٩ ٪ من مجموع السكان ، بينما لا تبلغ مساحتها أكثر من ١/٣ من مساحة القطر المصرى ، وتمهد العيش الهنىء المنتج لعشرات الآلاف من العمال العاطلين والمزارعين البؤساء .

* * *

ثم فلأكن عملية إلى حد ما ، ولأتساءل مع المتسائلين . « أمن الممكن إنكار اللجان التى تألفت وتتألف فى سبيل الفلاح ؟ » فى هذا لا أعارض ! لقد اجتمعت لجان كثيرة ، أكثر مما أبغى ومما أطلب ! ووضعت مقترحات عدة ، وتنفذ بعض هذه الاقتراحات .

ولكن ماهى الفائدة العملية التى اكتسبها الفلاح أخيراً ؟ هل ارتقى مستوى معيشته فأصبح يحيا كإنسان ؟ هل خف هجوم الأمراض المستوطنة التى تكمن له فى كل شبر من أرض القرية وفى كل قطرة من مياهها الملوثة ، وفى الهواء الذى يستنشقه متشبعاً بأبخرة البرك والمستنقعات ؟

هل صار يشعر بإنسانيته ويهتم بنظافة ثيابه وجسمه ومسكنه ؟ هل زاد إنتاجه أو احتفظ بمستوى إنتاجه العادى ؟ وإن كان فبأى ثمن ؟ هل تيسر له الغذاء الكافى المتواضع والحياة الآمنة المطمئنة التى تحبب إليه العمل والجهاد ؟

لست أجيب على هذه الأسئلة . وإنما أطلب إلى أولى الأمر أن يبسطوا للناس النتيجة العملية التى عادت على الفلاح من عشرات اللجان التى كثرت حتى لم تعد ذاكرتى تقوى على اختزان أسمائها ! ولست أحب أن نقرأ الأسلوب الذى تعودناه من نحو (قامت المصالح المسئولة بنصيبها من المسئولية) . وإنما أحب أن تبسط الفوائد الجدية المعقولة التى عادت على الفلاح من برامج الإصلاح ، وإلى أن نظفر بهذا البيان لا بأس من الجهر بأنى لا أعترف بسبق وجود برامج إصلاحية ، تمس حياة الفلاح بطريقة مباشرة ، وكل ما تم منها كان يقصد به زيادة الإنتاج ، لا بطريقة معقولة وإنما على حساب الفلاح المسكين .

موقفنا من الفلاح ليس مسألة معقدة يحتاج إدراكها إلى بحث أو ذكاء ! إنه موقف بسيط لا يمكن تأويله بغير حالتين ، إما أن نكون لم نهتم برفع مستوى معيشته وإما أن نكون قد بذلنا الجهد فى هذا السبيل . فإن كانت الأولى فقد حان الوقت إذن لنبدأ فى الإصلاح بمقتضى خطة منظمة يرسمها المؤتمر الزراعى العام الذى ألح فى الدعوة إليه . وإن كانت الثانية فإن هذه الجهود التى بذلناها قد ضاعت عبثاً لأن الفلاح لايزال يرسف فى أغلال عوزه ومرضه وشقائه ، وإذن فلا بد من البحث فى أسباب فشلها ، ولابد من تغيير خطة العلاج مادام الداء لايزال كما هو قويا قاتلا ، وفى الحالين تبدو الضرورة ملحة قاسية إلى عقد مؤتمر عام يدرس حياة الفلاح فى مراحل ثلاث : أولاها ، حياته المستقلة التى يجب أن يتوفر فيها مايقربها من الحياة الإنسانية المعقولة ، والثانية نوع الصلة بين إنهاض الفلاح وبين ثبات الميزان الاقتصادى فى الدولة ، والثالثة مسألة العلاقة بين الفلاح وبين المالك .

* * *

فاما حياته المستقلة فأحب أن ننظر إلى الفلاح كإنسان له حقوق بقدر ماعليه من واجبات ، يجب أن تتاح له حياة معقولة ممكنة. وعلى ضوء هذه النظرة ، تبدو لنا فداحة الشقاء الذى يغمر الفلاح الذى لا يعرف من الغذاء إلا ما يسد الرمق ولو لم يمد الجسم بحاجته من عناصر التغذية . ومن الشراب إلا ما يطفىء لهب الظمأ ، ولو كمنت فيه جراثيم امراض تقتله وتفتك به . ومن اللباس إلا ما يستر العورة ولو لم تكن له النظافة الواجبة له كإنسان ، ومن المسكن إلا المكان الضيق المظلم الذى يأوى إليه وأولاده ودوابه جميعاً ، ولو لم يتوفر له ما يجب للمساكن من ضوء وهواء نقى واتساع . حياته الشقية الأليمة لن تصلح إلا إذا نظرنا إلى الفلاح كإنسان مثلنا تماماً ، وإلا إذا جرؤنا على التفكير فى مدى احتمالنا لو قدر لنا أن نحيا الحياة التى يحياها .

* * *

وأما الصلة بين إنهاض الفلاح وبين ثبات الميزان الاقتصادى فى الدولة فتلك مسألة فيها أنانية ، وإن كان فيها نظر ، مصلحة الدولة هى قبل كل شىء وفوق كل اعتبار ، ولكن دراسة حياة الفلاح وتأثيره القوى فى مستقبل الدولة

توضح لنا أننا ننظر إلى المسألة نظرة معكوسة ، فمن الخطأ الفادح أن نمضى فى طريقنا إلى إصلاح ميزانية الدولة على حساب الفلاح المسكين ، وأن ننمى ثروتنا الزراعية بإرهاقه وإهلاكه ، ونحن فى هذا لا نفكر فى المستقبل يوم يهلك الفلاح فتخرب الدولة ، ولا ننظر إلا إلى مدى محدود من إصلاح يقوم على الفساد ، والوضع المعقول لصلة الفلاح بالدولة هو أن نصلحه لتنمو الثروة ، وأن ننهض بحياته ليزداد إنتاجه ونقوى بذلك على مقاومة التنافس فى الأسواق الدولية المضطربة ، ونحن بهذا نستطيع أن ننظر إلى المستقبل نظرة الثقة والاطمئنان ، لأننا أقمنا نهضتنا الزراعية على أساس متين من إصلاح الفلاح وهو يد مصر العاملة ، القادرة على إسعادها .

* * *

وتبقى بعد ذلك مسألة العلاقة بين الزراع والملاك ، وقد نبهنى إليها أحد كبارنا المشتغلين بالشئون الزراعية ، فقد يكون من السهل أن نجد طريقة لإصلاح حال فئة الزراع ، ولكنها غالبا تمس مصالح الملاك وهنا تبدو صعوبة

الإصلاح ، لأن الطرق العملية التى يؤخذ بها لا يصح أن تتعارض مع مصالح فئة أخرى

وأرى من ناحية أخرى أن مراعاة مصالح الملاك ليس معناها إرهاق الفلاحين التعساء ، وأن علينا أن نأخذ بحل أوسط نكفل به إيجاد التوازن بين مصالح الفئتين ، والمؤتمر الزراعى وحده هو الكفيل ببحث هذه المسألة وإيجاد الحل المنشود .

أخيراً . . . لقد ناديت بحماية الفلاح وألححت فى النداء . . والآن أخشى أن أصبح وأمسى فإذا بالظروف تلجئنى إلى الإلحاح فى المطالبة بإنقاذ الفلاح !

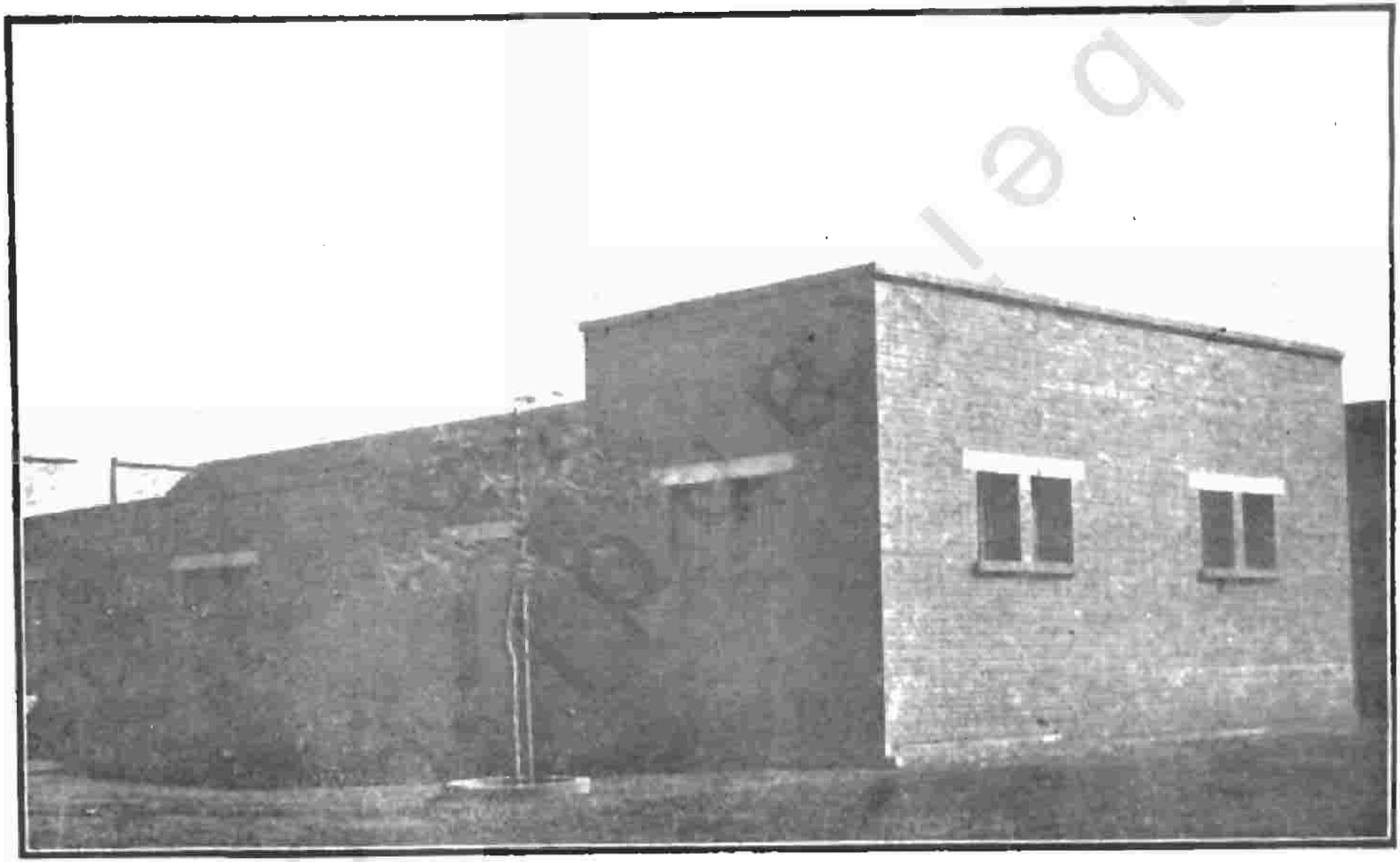

المنزل النموذجي للفلاح المجاهد